مهمة رجال اللغة

أحتفظ في جملة ما أحتفظ به من الأوراق التي كنت أطالعها من سنين بقطع من جريدة « الآداب الفرنسية » ؛ في هذه القطع طائفة من مقالاتٍ في باب من أبواب اللغة الفرنسية ؛ صاحب هذه المقالات « ألبر بايه » . لست أعرف شيئاً عن منزلته ، إلاّ أنّ مقالاته كانت تقع الموقع الحسن ، وعنوانها : الألفاظ والحياة ، فهو لم يبحث في مقالاته عن ميلاد الألفاظ وحياتها أو موتها ، فلم يُفض في شيء من العوامل النفسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية التي يكون لها في معظم الأوقات الأثر الأبلغ في اللغـــة ، وإنما بحثه في مقالاته الوجيزة كانت له صلة بطائفةٍ من ألفاظ كان يرى فيها خطأً أو صواباً فينبّه على هذا الخطأ أو على هذا الصواب مستعيناً في بعض الأوقات بأقوال فريقٍ من كبار الشعراء والكتّاب في عصور فرنسة الأدبية .

كلّ ما تقدمت الإشارة إليه لا يهمّ رجال لغتنا ، وإنما المهمّ على ما أعتقد إنّما هو مقال كتبه « ألبر بايه » وعنوانه : على هامش معجم المجمع الفرنسي ؛ في هذا المقال أشياء كثيرة قد يجد فيها رجال اللغة سبيلاً إلى الأخذ والردّ ، ولا بأس بالإشارة إليها .

أعلن المجمع الفرنسي من سنين أنّ طبعة معجمه قد شُرع فيها سنة ١٩٣٧ وإذا جرت الأمور مجراها فان هذه الطبعة قد يفرغ منها سنة ٢٠٨٥ . وقد جاء في إعلان المجمع أنه اطّرح جملةً من الألفاظ وقبل جملةً أخرى .

لم يعترض كاتب المقال على ما قرّره المجمع الفرنسي في هذا الباب ، وإنما سأل هذا السؤال : من أين جاء المجمعَ الحقُّ في قبول طائفة من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الألفاظ واطراح طائفة ثانيـــة . في الأصل جاءه هذا الحقّ من الملك وهو يعني بذلك الملك لويس الرابع عشر الذي عهد إلى المجمع أن يضع مفرداتٍ للطبقة المصطفاة من الشعب ، غير المفردات التي تستعملها العامّة في لغتها ، فاطّرح المجمع دون شيء من الشفقة ألفاظاً أكل الدهر عليها وشرب وألفاظاً عامية وألفاظاً فنية وألفاظاً تظهر عليها آثار التكلّف ، وهكذا فقد حُدّدت لغة خاصّة لطبقة من الأشراف ، وقد أضاف الكاتب إلى قوله المتقدّم أن هذا العمل كان مقبولاً في حين تقريره لأنّ القرن السابع عشر قد جاء بآياتٍ بيّنات في الأدب ، إلاّ أنّ الأحكام تختلف على اختلاف الأزمان ، فالقرن العشرون غير القرن السابع عشر ، ثم أشار الكاتب إلى ألفاظ اطّرحها المجمع الفرنسي لعاميّتها واعترض على هذا العمل بانياً اعتراضه على أنّ « هوغو » و « بلزاك » كانا يستعملان في لغتها ألفاظاً عاميّة وقد كثر في هذا العصر الكتّاب الذين يستعملون هذا النوع من الألفاظ .

لقد ألقى المجمع الفرنسي الألفاظ الجافّة والألفاظ القذرة فكال مثله في ذلك مثل المتقدّمين من العلماء الذين كانوا يأنفون من فحص مواد تتقزّز النفوس منها ، ثم إنّ المجمع إذا قرّر أنّ هذا اللفظ إنما هو قديم وغير مستعمل فانه لا يستطيع أن يأتي ببرهانٍ على قراره ، فبناءً على كل ما تقدّم إن الطبعة التي ستتمّ سنة ٢٠٨٥ ستكون طبعة باطلة فان الناس ينتظرون العمل المطابق لروح العلم الحديث ، والذين يدركون روح العصر يعلمون أن الألفاظ ليس فيها ما هو شريف وما هو غير شريف ؛ لا مفاضلة بين الألفاظ ، فان اللغة تشتمل على ألفاظ قد استعملت في العصر الفلاني أو في المجتمع الفلاني ، فمهمّة رجال اللغة الأولى أن يسجّلوا هذه الألفـــاظ والمهمّة الثانية وهي أصعب أن يحدّدوا تاريخ ميلاد هذه الألفاظ وشيوعها في المجتمع ، والمهمّة الثالثة وهي أصعب المهمّات تنحصر في تحديد معاني هذه الألفاظ . وقد تعجّب الكاتب في الخاتمـــة من الأمر الآتي : إنهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يُعنوا حتى هذا اليوم بإحصاء الألفاظ التي وجدت في اللغة الفرنسية من القرن الحادي عشر حتى القرن العشرين ، ولماذا هذا كله ، لأنّ الذين عملوا المعجمات اهتمّوا بتوجيه العرف والاصطلاح بدلاً من اهتمامهم بتسجيل هذا العرف وهذا الاصطلاح فان عملاً مثل هذا العمل يستلزم تهيئة جماعات لها العُدّة الصالحة ، غير أنّ هذا العمل إذا تمّ فانه قد يُفضي بعلم النفس وبعلم الاجتماع إلى تقدّم عجيب ؛ إن عملاً مثل هذا العمل قد يكون من عواقبه خصب اللغة ، فانّ علم اللغات لا يزال متأخراً عن علوم الطبيعة .

هذه خلاصة ما جاء في مقال « ألبر بايه » وأظن أنّ هذا المقال كتب من عشرين سنة .

★ ★ ★

أفلا يوحي إلينا هذا المقال أشياء كثيرة ؟ إنه يشتمل على آفاقٍ مديدةٍ مختلفة ، وقد يضيق مجال الإفاضة في كلّ هذه الآفاق في مقال واحدٍ لقد ألمع الكاتب إلى حق المجامع في اطّراح ألفاظ من اللغة وقبول ألفاظ وتكلم على طبقة من الألفاظ من حيث شرفها وانحرافها عن هذا الشرف كما تكلّم على تاريخ ميلاد الألفاظ ، وهو يعني بهذا الميلاد متى ولد اللفظ الفلاني ومتى عاش أو مات ، أو متى انتقل معناه من وجهٍ إلى وجهٍ .

إن الاندفاع في كل أفق من هذه الآفاق في مقال واحد لا يتسع له المجال ، ولكني أقتصر على أفق واحد ولا أشبع القول في هـــذا الأفق وإنما أختصر الكلام اختصارا .

في لغتنا كثير من الألفاظ العامية التي استفاضت في العامّة وأصبح لها معنى قوي ما أظن أن غيرها من الألفاظ الفصيحة يقوم مقامها في الإعراب عن هذا المعنى ؛ في جملة هذه الألفاظ قولنا : تطنيش ... حردان ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

زعلان ... وكما نجد في لغتنا العامّة ألفاظاً قوية فكذلك نجد فيها تراكيب قوية مثل قولنا : كلامه قَطْع وَلحْش .

لا بأس بتحديد معاني هذه الألفاظ والتراكيب ، فالتطنيش في لغة العامة معناه قلّة المبالاة بما يقوله محدّثنا أو قلّة الالتفات إلى ما يطلبه أو قلة الاهتمام بما ينبّهنا عليه ، فإذا قلنا لفلان كذا وكذا فطنّش فنحن نريد بذلك أنه لم يكترث لقولنا ، أو إذا ألتمسنا منه كذا وكذا فطنّش فنحن نعني بذلك أنه جعل ملتمسنا ورآء ظهره ، فهو قد فهم ما نقول وعرف ما نلتمس ولكنه لم يبال بكل هذا ، وما أظن أن هذه المادّة العاميّة تقوم مقامها مادة فصيحة ، ليس معنى الأمر أن اللغة تضيق عن أداء مثل هذا المراد وإنما معناه أن هذه المادّة العاميّة أقوى من غيرها لاستفاضتها في العامّة وشدّة تأثيرها في الأذهان .

وإذا لم يكن لمادّة التطنيش أصل في اللغة فانّ لمادّة الحَرْدان أصلاً فصيحاً ؛ من جملة معاني هذه المادّة : حرد كضرب وسمع غضب ، فهو حارد وحرِد وحَرْدان ، ولكن إذا قلنا : فلان غضبان ، فان هذا القول لا يعدل في القوّة قولنا : فلان حَرْدان ، فالحردان يغضب ثم يعتزل وينتحّى ، فهو لا يحضر مجلس الوزراء إذا كان وزيراً ولا مجلس الحزب إذا كان داخلاً في هذا الحزب ، فلفظة الحردان أقوى من لفظة الغضبان وهذه اللفظة فصيحة من جهة ومن جهة ثانية إن من معانيها الاعتزال والتنحّي ، فالرجل الحارد أو الحريد هو المعتزل المتنحّي .

ولكن إذا استطعنا أن نجد أصلاً فصيحاً للحردان فانّا لا نجد مثل هذا الأصل للزعلان العامية ، فالزعلان في لغة العامة معناه معروف ، وما أظن أن لفظاً آخر يسدّ مسدّه على كثرة ما تحتوي عليه اللغة من مفردات الهمّ أو الانكسار أو الحزن أو ما شابه ذلك وقد سمّوا قديماً : زعلان ولكن من الزّعَل وهو النشاط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإلى جنب هذه المفردات العامية نجد تراكيب تشيع على ألسن العامة منها قولنا : فلان كلامه قطع ولحش ... أي أنه يتكلم ولا نظام في كلامه ولا تنسيق ولا منطق ولا تسلسل ولا صلة ، فأيّ تركيب ينوب عن هذا التركيب ، لا ريب في أن مادّة القطع فصيحة وأن مادّة اللحش غير فصيحة ولكن قد تكون العامة تصرّفت فيها بعض التصرف كما سبقت الإشارة إلى ذلك في مقال متقدّم ، فان قولنا : وحش بثوبه معناه : رمى ، فقد يجوز أن العامّة حذفت الواو في لغتها وجعلت بدلاً منها لاماً ، ثم نقلت هذه المادّة إلى المجاز فقالت : كلامه قَطْع ولَحْش ، وهو الرمي بالكلام دون تدبُّر .

ما هو رأينا في أشباه هذه الألفاظ العامية ، إذا كنّا معاشر المحافظين على فصاحة اللغة نجتنب استعمال الألفاظ العامية في كتاباتنا أفلا يجوز لنا أن نعترف بقوة هذه الألفاظ وأثرها ؟ أفلا يجوز لنا أن نُعنى بتدوينها في معجم خاص ؟ وقد عُني بمثل هذا الأمر في المملكة المغربية الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله فسمّى معجمه : معجم الأصول العربية والأجنبية للعاميّة المغربية . لقد اهتمّ تأريخنا في القديم بالطبقات الخاصة أكثر من اهتمامه بالطبقات العامّة على أن لهذه الطبقات العامّة لغة خاصة ؛ إن لها فكراً وشعوراً وذوقاً فلماذا لم يلتفت تاريخنا إلى هذه اللغة فيدونها في معجم خاص ويوضّح معانيها فان المعجمات تشتمل على روح الأمة ، على لحمها وعظمها ودمها ؛ والطبقات العامّة جزء من هذه الأمة ، وقديماً لم يتذمّم إمام من أئمّة البلاغة وأعني به الجاحظ من استعمال بعض ألفاظ عامية ؛ وإذا كنّا في عصرنا نتذمّم من مثل هذا الاستعمال ، إذا كان من الواجب علينا أن نرفع لغة العامّة إلى أفق لغة الخاصّة فمن حق العامّة أن ندوّن لغتها في معجم خاص يوضح معاني مفردات هذه اللغة .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net